◆ رثاء المدن بين الأندلس والمشارقة

حين كُتب تاريخ الأدب العربى فى أوائل هذا القرن على نهج الاستشراق ، اضطر رجاله إلى الإلمام بأحكامٍ عامة حالفها الصواب فى أكثرها ، وبقى بعضها مجالاً للبحث والدراسة ، وكان نصيب الأدب الأندلسى من هذه الأحكام الصائبة موفورًا بلا شك ، ولكن اضطرار باحثيه إلى إثبات فروق كثيرة بينه وبين الأدب العربى بعامة أوقعهم فى بعض الخطأ الظاهر ، كقولهم : «إن رثاء المدن فن أندلسى أَوْحَتْ به مآسى الحوادث هناك»، وقد رسخ هذا القول رسوخًا مكينًا ، حتى وجدنا أطروحة جامعية حديثة تتحدث عن نكبة فلسطين وما قيل فيها من الشعر ، فترجع بالأثر إلى أشعار النكبة فى الأندلس ! وهو غلو فى الاستنتاج لا نرى داعيًا إلى التمسك به ، وحتى رأينا نفرًا من أعلام الكُتَّاب كأستاذنا الدكتور أحمد أمين يعلن خلو الأدب المشرقى من مراثى المدن ، ويعلل ذلك بما يعن له ، ونحن نعرض رأى هؤلاء ممثلاً فى قول صاحب ظُهر الإسلام[1] :

«لقد رأينا مُدُنًا فى الشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر تستوجبُ الرثاء والبكاء ، كما سقطت بغداد فى أيدى التتار ، وأَزَالُوا كلَّ ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة ، وفعل التتار بها ما لا يقل عَمَّا يفعله الأسبانيون فى الأندلس ، وغزا هولاكو وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام ، وأسقطوها بلدًا بلدًا ، فما رأينا عاطفة قوية ، ولا رثاءً صارخًا ،

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٧ .

ولا أدبًا رقيقًا ، ولا تاريخًا مسجلاً كالذى رأيناه فى الأندلس ، فإن قلنا إن هذه الناحية فى التاريخ الأندلسى أقوى وأشد لم نبعد عن الصواب» .

وعبارة أستاذنا الكبير – رحمه الله – على شىء من التناقض أولاً وأخيرًا ، إذ إن قوله : «فإن قلنا إن هذه الناحية فى التاريخ الأندلسى أقوى وأشد لم نبْعد عن الصواب» قد يبدو متعارضًا مع قوله : «فما رأينا رثاءً صارخًا ولا أدبًا رقيقًا ولا تاريخًا مسجلاً» ، لأن القول الأخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو أقل من لون الأندلس ، والقول الأول يكاد يحكم بعدمه ! مع أن المتصفح لكتب الأدب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعًا فى كل محنة تجد ، ولم يتعرض أمثال : الطبرى وابن الأثير والمسعودى لمحنة ما إلا رَووا عنها فى كتب التاريخ – فضلاً عن كتب الأدب الخالص – نماذج رائعة ، فيها الرثاء الصارخ ، والأدب الرقيق ، والتاريخ المسجل كما كان يريد أستاذنا الدكتور أحمد أمين ، وسبيلنا الآن أن نفصح عن ذلك موجزين .

لم يكن للشاعر الجاهلى قبل الإسلام مُدن يبكى عليها ، فهو ينتقل فى الصحراء الواسعة من مكان إلى مكان طلبًا للمرعى ، وسعيًا وراء العيش ، وإذا أَلمَّ بمدن المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام فهو إلمام المسافر المتكسب الذى لا يشغله ما يراه فى الحضر عَمَّا خلف فى البادية من نوق وخيام وأصحاب ، وشعراء الحضر فى الإقليمين – مناذرة وغساسنة – لم يجدوا من الحوادث الهائلة ما يدعوهم إلى رثاء المدن ، إذ ظلت سليمة آهِلَةً ، تحظى بسيطرة الملك وأبهة السلطان ، ولكن شعراء البادية فى تنقلهم المتتابع بالصحراء كانوا يألفون مرابعهم ، ويبكون على فراقها إذا اضطرهم المسير إلى انتجاع موضع عشيب ، والشاعر الذى يبكى الربع الدارس والطل الماحل ، ماذا كان يُنتظر منه لو عاش فى مدينة آهلة ثم نكبت فى كارثة فادحة ؟ لابد أنه كان يرسل المعلقات الرنانة فى توضيح عاطفته النائمة ، وشجنه الملتاع ! على أن ما لدينا من أدب الأطلال فى الجاهلية وصدر الإسلام أدب عاطفى ، صادق اللهجة ، صريح الدلالة على هيام العربى بأرضه ، وتعشقه الصحراء ، وحنينه إلى منازل أحبابه ، وما شوه هذا الأدب الجميل إلا تكلفه الزائف عند شعراء بنى العباس ممن أغرموا بمحاكاة أسلافهم ، لا عن حنين للربع ،

أو هيام بالطلل ، بل كى ينْهجو المنهج الجاهلى فى القصيد ، وزاد ما قاله هؤلاء المحدثون عن حَدِّهِ حتى استُثقل ومُجَّ ، وعادت كراهيته عفوًا إلى ذلك الأدب الأصيل مما قيل فى الجاهلية وصدر الإسلام عند بعض المتسرعين ، أما الذين يعرفون منازع الشعر ويقيمون أحكامهم على أصالة العاطفة وصدق الإحساس فيضعون أدب الأطلال فى عصورها الأولى موضعه الأثير ، ويرون فيما قاله امرؤ القيس بدارة جلجل ، وزهير بدمنة أُمِّ أَوْفَى ، وعنترة بدار عبلة فى الجواء ، أدَبًا حَىَّ العاطفة ، صادق التعبير ، وإذا جمعت الأطلال بعضها إلى بعض فهى مدينة زائلة بكاها الشاعر الجاهلى فَصَدَقَ البكاءُ !

وقد تطور أدب الأطلال فيما بعد إلى أدب الآثار ، فأصبح الشعراء يجدون فى قصور التاريخ وأواوينه وأهرامه ومسلاته منادح واسعة للقول ، وإن كان الشاعر فى وصف الآثار واستجلاء عظمتها الغابرة يتحدث عن عاطفة عامة مشتركة يجد صداها لدى كل مواطن مثله ، أما شاعر الأطلال فيصدر عن عاطفة ذاتية ينفرد بها فى الأعم الأغلب ، وإذا شاركه فيها إنسان آخر فإن الشاعر لا يكترث به ، بل كل همه أن يُفَرِّجَ عن صدره هَمًّا يرين عليه بما ينظم من أبيات . ولحيويّة هذا الأدب وصدقه أصبح ذا متعة وأنس لقارئه المتذوق ، وإن لم يكن من ساكنى البادية وعاشقى الأطلال والربوع .

كانت بغداد أول مدينة تعرضت للتدمير والحريق فى صدر الدولة العباسية حين اسْتَعَرَ الخلاف بين المأمون والأمين ، وهجمت الخراسانية بمجانيقها ورماحها وخيولها ، واشتطت اشتطاطًا ظالمًا فى نسف بغداد وترويعها ، وقد زاد الطين بلة أن اهتبل الفرصة فريق من الأَوْشَاب والرعاع ، فتسوروا القصور والمتاجر ، واقتحموا الدور ، ونهبوا الأموال ، وهتكوا الأعراض ، وكانت محنة مروعة لم يكن أحد ليتصورها فى عهد بنى العباس ، وهم الذين قد جعلوا بغداد حاضرة العالم بأسره ، وعاصمة الإسلام فى أقاصى أقطاره ، وكانت منذ سنوات قليلة تنعم بأبهة الرشيد وعظمته ، ويعدّ القاصون أرحلهم لينعموا بمشاهدتها وقد قطعوا الشهور ذوات العدد ضربًا فى الطريق ، وتجوالاً فى الأنحاء ، مستسهلين الصعاب ، ليتحقق حلمهم البعيد «رؤية بغداد» ، فلما حلت النكبة الفادحة وقف الشعراء الرسميون – من مادحى الخلفاء والوزراء – ينظرون علَى مَنْ تدور

الدائرة ليشمتوا به ، ثم ليتجهوا إلى غريمه الظافر يهنئونه بالنصر ، ويختلقون له روائع البطولة والنجدة وبُعد النظر ، ويجعلونه معجزة الإنقاذ ، ومؤْئل الرجاء ، ولكن شاعرًا خاملاً بذكره ، نابهًا بجودته ، لم يكنْ يؤثر الرؤساء بأمداحه ، بل كان يجعلُ شعره مسلاة نفسه ، ومتنفس شجونه قد هاله أن تصبح بغداد العظيمة موضع الحسرة والفجيعة ، وتعاظمه أن يجد السفلة من الأوشاب يرأسون المظاهرات لاقتحام الدور ، واغتصاب الأموال ، وسلب العفاف ، فأرسل زفراته الحارة كاوية لاهبة فى قصيدة مؤثرة باكية تجاوزت المائة من الأبيات ، هذه القصيدة الرائعة لم تحفلْ بها كتبُ الأدب ، فتشيد باتجاهها الواقعى ، وتعبيرها المؤسى ، واتساع منافذ الشعور وإبعاد الخيال ومطارح التصوير لدى قائلها ، وهو بعدُ لا يُشعرك أنه ناظم يتعمد الوصف ، ويحْفل بالجزالة ، ويمهّد لضروب الاستعارة والتشبيه ، ولكنك تقف منه أمام نهرٍ مُطَّرِد المسير ، دافقِ التيار ، وحسبُه أن ينقل عن نفسه ما يجيش بها من هدير ، هذا الشاعر – الذى حفظ كتاب الطبرى وحدهُ قصيدته – هو أبو يعقوب إسحاق الخزيمى ، الذى لا تكاد تروى كتب الأدب شيئًا عن تاريخه وشعره ، وإنما هى سطور متفرقة تقال فى كل شاعر .. على أن مرثيتَه لبغداد كانت أبلغ تعريف به ، وقد تعرّض بدءًا إلى عِزِّها السالف ، ومجدها الغابر ، فرسمه فى صورة سهلة لا تكلف بها ، وإنما هى حديثٌ شعرىّ يحمل رصيده النفسى من الإيحاد والتلوين إذْ يقول :

إذْ هِيَ مثلُ العروس بادئها ... مهوّل للفتى وحاضرُها
جنة دنيا ودار مغبطة ... قَلَّ من النائباتِ وَاتِرُهَا
درّت خلوف الدنيا لساكنها ... وقَلَّ معسورها وعاسرها
وانفرجتْ بالنعيمِ وانتجعتْ ... فيها بلذاتها حواضرها
فالقومُ منها فى روضة أنف ... أشرق غبّ القطار زاهرها
من غُرَّةِ العيشِ فى بُلَهْنِيَةٍ ... لو أن دنيا يدوم عامرها
دار ملوك رستْ قواعدها ... فيها وقَرَّتْ بها منابرُهَا
أفراحُ نُعْمَى فى إرثِ مملكةٍ ... شَدَّ عُراهَا لها أكابرها

فلم يزل والزمان ذو غِيَر ... يقدح فى ملكها أصاغرها
وافترقت بعد ألفه شِيَعًا ... مقطوعة بينها أوَاصِرُها
أو رَدّ أملاكنا نفوسهم ... هوّة غَيٍّ أعيتْ مصادرها
ما ضرها لو وفتْ بموثقها ... واستحكمت فى التقى بصائرها
وأقنعتها الدنيا التى جمعت ... لها ، ورغب النفوس ضائرها

أرأيت هذا الحديث السهل المؤثر ، لا يعمد إلى قعقعة صاخبة ، تصك سمعك ، ولا ينادى صاحبه على نفسه بالرصانة المفتعلة ، ليذهب له ذكرٌ فى جودة الحوك وزركشة الوشى ، وإنما هى نظرة المتأمل ، وعبرة الذاكر ، حتى إذا ادَّكَرَ الأمس بمباهجه انتقل إلى الحاضر بدواهيه فقال :

يا بؤسَ بغداد دار مملكة ... دارت على أهلها دوائرُها
أمْهَلَهَا اللهُ ثم عَاقَبَهَا ... حين أحاطت بها كبائرُها
بالخسْفِ والقذفِ والحريق وبا ... لحرب التى أصبحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصى بها ... كالعاهر السوء نامَ عاهِرُهَا
حلّت ببغداد وهى آمنة ... داهيةٌ لم تكن تُحاذرها
طالَعها السوءُ من مطالعه ... وأدركتْ أهلها جرائرها
دقّ بها الدين واستخف بذى ... الفضل وعزّ النساء فاجرها
وخطم العبد أنف سيده ... بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار ربُّ الجيران فاسقهم ... وابتز أمر الدروب ذاعرها
مَنْ يرِ بغداد والجنود بها ... قد ربقت حولها عساكرها
كل طحون شهباء باسلة ... تسقط أحبالها زماجرها
يلقى بغىّ الردَى أوانسها ... يرهقها للقاء طاهرها
والشيخ يعدُو حزمًا كتائبه ... يقدم أعجازه يعاورها

هذا كله بعد الأنس السابغ ، والنعيم الضافى ، والعز المقيم !

يـــا هـــل رَأَيْـــتَ الجِنـــانَ زاهـــرةً ... يـــروق عـــين البـــصير زاهرهـــا؟
وهـــل رأيـــت القـــصور شـــارعة ... تكـــنّ مثـــل الـــدمى مقاصـــرها
أيـــن الظبـــاء الأبكـــار فـــى روضـــة ... الملـــك تَهـــادَى بهـــا غرائرهـــا؟
أيـــن غـــضاراتُها ولـــذتها ... وأيـــن محبورُهـــا وحابرهـــا؟
بالمـــسك والعنـــبر اليمـــانى والأطيـــا ... ب مـــشبوبة مجامرهـــا
يـــرفلن فـــى الخـــز والمجاســـد والمـــو ... شـــى مخطومـــة مزامرهـــا
فـــأين رقّاصُـــها وزَامِرُهَـــا ... يجـــبن حيـــث انتهـــت حناجرهـــا؟
تكـــاد أسماعهـــم تســـل إذا ... عـــارض عيدانهـــا مزامرهـــا!

هؤلاء الأوانس النواعم ذوات النوافح ، العبقة من المسك والعنبر يرفلن فى الخز والمجاسد ، قد صِرْنَ وسط الأزِقَّةِ صارخات باكيات يسألن أين الطريق ؟ ولم يكدنَ يبرزن وجوههن للشمس إذ يمرحن فى الأبهاء والمقاصير حتى اختطفتهن حرب زَبُون لا رحمة لديها ولا عطف ، فهن كما قال الشاعر :

معـــصوصبات وســـط الأزقـــة قـــد ... أبرزهـــا للعيـــون ســـاترها
كـــلّ رَقُـــودِ الـــضُّحَى مخبـــأة ... لم تبـــدُ فـــى أهلـــها محاجرهـــا
بيـــضةُ خـــدرٍ مكنونـــة بـــرزت ... للنـــاس منـــشورة غـــدائرها
تعثـــر فـــى ثوبهـــا وتعجلـــها ... كبـــة خيـــل زيغـــت حوافرهـــا
تـــسأل أيـــن الطريـــق والهـــةً ... والنـــار مـــن خلفهـــا تبادرهـــا
لم تجتـــلِ الـــشمس حُـــسن بهجتهـــا ... حتـــى اجتلتهـــا حـــرب تباشـــرها
يـــا هـــل رأيـــت الثكلـــى مُوَلْوِلَـــةً ... فـــى الطـــرق تـــسعى والجهـــد باهرهـــا؟
فـــى إثـــر نعْـــشٍ عليـــه واحـــدها ... فـــى صـــدره طعنـــة يـــساورها
خرقـــاء تلقـــى النثـــار مـــن يـــدها ... يهزهـــا بالـــسنان شـــاجرها
تنظـــر فـــى وجهـــه وتهتـــف بالثكـــل ... وعـــز الـــدموع خامرهـــا
غرغـــر بالنفـــس ثـــم أسلمهـــا ... مطـــلولة لا يخـــاف ثائرهـــا!

هذا شعر صادق مؤثر ! وتصويرٌ حى باهر لكل عذراء رقود الضحى منعّمة ، لا يعرف أهلها صورتها لشدة تصوّنها ، ثم هى تُذال فى الطريق منشورة الغدائر ، تعثر فى ثوبها ، ولا تقيم الخطو ، إذ تعجلها كبة خيْل تختطف الأوانس من هنا وهناك ، تسأل : أين الطريق ؟ والنار من خلف وأمام ! أما الثكلى ذات الولد فتولول إثْرَ النعش ، تنظر إلى غريمها القاتل صارخة فى وجهه ! ولصدرِها شجون لا يبلغها التعبير ، ومِنْ قبل هذه العذراء البكر ، ومِنْ بعد هذه الثكلى تتراءى صور للأسى رسمتها القصيدة ، فكانت أبلغ مرثية قيلت فى بغداد ... ولا نحب أن نطيل الوقوف لديها كما تستأهل دراسة وتحليلاً ، فلها أخوات أُخر من بنات الشعر ينتظرن .

أما رثاء البصرة لابن الرومى فمن أروع آثار هذا الشاعر الفذّ ، فقد راعه أن تصبح البصرة بين عشية وضحاها مَرْعًى مباحًا لهمل الزنج ، وطغام السُّوقة ، إذ أشعلوا الحرائق بها من ثلاث جهات ، فكانت النيران تتقابل كى تحصدها ، أتت عليها من قصور وأرواح وأموال ، ثم أشاعوا الأمان ، وطلبوا ممن بقى على الحياة أن يلجأ إلى المسجد الجامع كى يأمن على نفسه ، فصَدَّقَ الناس – لعظيم الهلع – ما يسمعون ، وهرولوا إلى بيت الله لائذين ، فحاصرهم السوقة من الزنج وأعملوا سيوفهم فى الرقاب دون رحمة ، حتى لم يبق أحد ممن اعتصم ببيت الله !! وصارت البصرة أنقاضًا سُلط عليها البثق والحريق ، فما ترى غير وجوهٍ قد رملتها الدماء وُطئت بالهوان والذل ، وأذرعٍ منثورة فى الطريق لا تجد راحمًا يجمعها ليدفنها فى مكان حتى حقّ لابن الرومى أن يقول :

بينما أهلها بأحسنِ حالٍ ... إذ رماهم عبيدهم بِاصْطِلامِ
دخلوها كأنهم قطع الليل ... إذَا راح مُدْلَهِمَّ الظلامِ
كم أغصّوا من شارب بشراب ... كم أغصُّوا من طاعمٍ بطعامِ
كم ضنين بنفسه رامَ مَنْجىً ... فتَلقَّوْا جبينه بالحسام
كم أخ قد رَأى أخاه صريعًا ... تَرِبَ الخدِّ بين صَرْعَى كرامِ
كم مُفَدَّى فى أهله أسلموه ... حين لم يحمه هنالك حامٍ
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حد الفطام

كـــم فتـــاةٍ بخـــاتم الله بكـــر ... فـــضحوها جهـــرًا بغـــير اكتتـــام
صـــبّحوهم فكابـــد القـــوم مـــنهم ... طـــول يـــوم كأنـــه ألـــف عـــام
من رآهـــنّ فى المســـاق ســـبايا ... بعـــد ملك الإمـــاء ، والخـــدام

هـذه المعـانى تتكـرر دائمًـا فـى مراثـى المـدن ، دون أن يقلّـد فيهـا شـاعر سـواه ، لأن الواقع المفجع نفسه قد تكرر فتكرر معه خيال الشاعر وتصويره ، وقـد ذهـب بعـض النقـاد إلى موازنة بين قصيدتين أندلسيتين تـضمَّان أمثـال هـذه المعـانى ، فَحُكِمَ للسابق بالابتكـار وللاَّحـق بالتقليـد ، وهـذا لعمـرى خطـأ واضـح ، لأن التفـات الـشاعر إلى روعـة الأشـياء المذهلة لا يجعل تشابهها مدعاة لإغفالهـا ، ومازلنـا نقـرأ أمثـال ذلـك حـين تحـين مناسباته . ولكل شاعر طريقته الخاصة التى يصور بها مشاعره ، ولا تظن أن رثـاء المـدن وحـده هـو الذى يضم هـذه المشاهد ، فـالبُحْتُرِىُّ مثلاً يرثـى المتوكـل علـى الله ، فيتلـهف علـى قـصر الجعفرى وأُنسه ، على نحو قريب مما نرى هنا ، ويتحدث عنـه إذْ رِيـعَ سِرْبُهُ ، وإذ دُعـرت أطلاؤه وجآذِرُه ، وإذْ صيحَ فيه بالرحيل فهتكـت أستاره وستائره .. ومازالـت أمثـال هـذه المشاهد تـثير المشاعر ، وتـذكى الجـوانح ، فتـداولها الـشعراء كـلٌّ ينـسج علـى منوالـه مـا استطاب مـن لـدن الخريمـى ، وابـن الرومـى ، وشـعراء النكبـة فـى الأنـدلس ، إلى حـافظ إبراهيم فى زلزال مسينا ، وحريق ميت غمر ، ثم إلى ما تـلا ذلـك مـن حـديث فلسطين ! فالقول هنا بتـأثر اللاحـق بعيدٌ عـن مطـارح الـصواب ، علـى أن الجـدة حقًّـا لـدى الـشاعر العبقرى تظهر فى ألوانه وصـوره مـن ناحيـة ، وفـى وثبـات خيالـه مـن ناحيـة ثانيـة ، فـابن الرومى يطفر بخياله طفرات موفقة حين يتصور يوم الموقف الأعظم أمام المنتقم الجبـار وقـد هرع الناس إلى المحشر الرهيب بين يـدى رب العـالمين ، فـسألهم – عَزَّ وَجَلَّ – عـن مأسـاة البصرة ، ونادى مُعاصريها من المسلمين متسائلاً : أما غضبتم لوجهى ؟ أخذلتم إخوانكم وقعدتُم قعود اللئام ؟! لِمَ لَمْ تغاروا لغيرتى فتركتم الحرمات لمنْ أحل الحـرام ؟ ثـم يتـصور بعد ذلك رسول الله S وقَد صاح بالناس : أين كنتم حين صرختْ كرائم الدور وامحمداه ! لِمَ لَمْ تُجيبوهن وقد استنجدن برسول الله وهو دفينٌ تحت التراب ؟! هذا نمط من التخيل العبقرى لا يقدر عليه إلاَّ شاعر من طراز ابن الرومى حين يقول :

أىّ خطـــــب وأى رزْءٍ جليـــــل ... نَالَنَـــا فـــى أولئـــك الأعـــلامِ
كـم خَـذَلْنَا مِـنْ ناسـكٍ ذى اجتهـادٍ ... وفقيـــهٍ فـــى دينـــه عَـــلاَّمِ
وَانـــدامى علـــى التخلُّـــفِ عـــنهم ... وقليـــل عـــنهم غنـــاء نـــدامى
وَاحَيَـــائِى مـــنهم إذا مـــا التقينـــا ... وهـــمُ عنـــد حـــاكِمِ الحُكَّـــامِ !
أىُّ عـــذرٍ لنـــا وأَىُّ جـــوابٍ ... حـــين نُـــدعى علـــى رُءُوسِ الأنـــامِ :
يـا عبـادِى ، أمـا غـضبتُم لـوجهى ... ذِى الجـلال العظـيم والإكـرام ؟
أخـــذلتمْ إخـــوانكم وقعـــدتُم ... عـــنهُمُ وَيْحَكُـــمْ قعـــود اللئـــام !
كيـــف لم تعطفـــوا علـــى أخـــواتِ ... فـــى حبـــال العبيـــد مـــن آل حـــام ؟
لم تغـــارُوا لغيرتـــى فتركـــتم ... حُرمـــاتى لمـــن أَحَـــلَّ حرامِـــى
إنّ مَـــنْ لم يَغَـــرْ علَـــى حُرمـــاتى ... غـــير كُـــفْءٍ لقاصـــرات الخيـــام
كيـف ترضـى الحـوراء بـالمرءِ بعـلاً ... وهـــو مـــن دون حرمـــة لا يحـــامى
وَاحَيَـــائِى مـــن النبـــى إذا مـــا ... لامَنـــى فـــيهم أشـــد الملـــام !
وانقطـــاعى إذا هـــمُ خاصـــمونى ... وتـــولى النبـــى عـــنهم خـــصامى
مثّلـــوا قَولـــه لكـــم أيهـــا النـــا ... س إذا لامكـــم مـــع اللـــوم :
أُمَّتِـــى أيـــن كنـــتُم إذ دعـــتكم ... حُـــرَّةٌ مـــن كـــرائم الأقـــوام ؟
صـــرختْ يـــا محمـــداه فهـــلاَّ ... قـــام فيهـــا رعـــاةُ حَقِّـــى مقـــامى
لم أجبهـــا إذْ كُنْـــتُ مَيِّتًـــا فَلَـــوْلاَ ... كـــان حـــىٌّ أجابهـــا عـــن عظـــامى
بـــأبى تِلْكُمُـــوا العظـــامِ عظامًـــا ... وســـقتها الـــسماء صـــوب الغمـــام
وعليهـــا من المليـــك صَـــلاةٌ ... وســـلامٌ مُؤَكَّـــدٌ بســـلامِ

وقد عجبتُ لقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين : «لقد سقطتْ بغداد فى أيدى التتار وأزالوا كل ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة ، وفعلوا بها ما لا يقل عَمَّا فعله الأسبانيون فى الأندلس .. وغزا هولاكو وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام وأسقطوها بلدًا بلدًا ، فما رأينا رثاء صارخًا ولا أدبًا رقيقًا» ، ففى الواقع أن بغداد رُثيت برثاءٍ كثير فى هذه المحنة كما رُثيت جميع المدن التى أسقطها هولاكو وتيمورلنك ، ولكن هذه المراثى لم

تبلغ من الروعة مبلغ مراثى الخزيمى وابن الرومى وأمثالها ، لانحدار الشعر العربى بعامة فى عصور الغزو التترى ، فلم يكن للعربية إذ ذاك من فحول الشعراء من يطيلون الملاحم فى التفجع والحسرة ، كما لم يكن لها إذ ذاك أيضًا من يجيد الأغراض الأخرى من غزل ووصف وأمداح ، إنما كان لدينا شعراء فَهِمُوا مدلول الشعر على غير وجهه ، وقد أفسدتْهم سيطرة النقد القائم على تفضيل التلاعب اللفظى والمحسن البديعى ، ومع هذا كله فقد قام من يقولون الشعر بواجبهم نحو هذه المدن الجريحة ، فعبروا عن الشعور الإسلامى كما يستطيعون ، والأستاذ أحمد أمين أحد الذين اشتركوا فى تأليف «المنتخب المدرسى» ، فلا بد أن يكون قد قرأه وأقره ، فكيف يغفل عَمَّا به من رثاء بغداد ؟ – وهو مثل من أمثال – للشاعر شمس الدين الكوفى ومن أبياته :

إن لم تقرّح أدمعى أجفانى ... مِنْ بَعْدِ بُعْدِكُمُ فما أَجْفَانى !
إنسانُ عينى مذ تناءتْ دَارُكُم ... ما راقه نظر إلى إنسانِ
مالى وللأيام شَتَّتَ خَطْبُهَا ... شَمْلِى وخَلاَّنِى بلا خِلاَّنِ !
ما للمنازل أصبحتْ لا أهلها ... أهْلِى ولا جيرانها جيرانى !
وحياتِكم ما حلها من بعدكم ... غير البِلَى والهدم والنيرانِ
أين الذين عَهِدْتُهُم وَلِعزِّهِم ... ذُلاً تخر معاقد التيجان
كانوا نجوم مَن اهتدى فعليهمُ ... يبكى الهدى وشعائر الإيمان
أفنتهم غير الحوادث مثلما ... أفنتْ قديمًا صاحبَ الإيوانِ
مازلتُ أبكيهم وألثم وحشة ... لجمالهم مُتَهَدّمَ الأركان
حتى رَثَى لى كل مَنْ ما وَجْدُه ... وَجْدِى ولا أشجانه أشجانى

هذا نمط مما قيل ، وقد شغل فيه الشاعر عن تسجيل دوافق اللوعة بمراعاة الجناس بين أجفانى وما أجفانى ، وبين إنسان العين والإنسان ، وحول الطباق بين الموت والحياة ، والعز والذل ! وهذه محنة الأدب بعامة فى عصور الانحطاط .

أما الشاعر الفارسى العملاق سَعْدِى الشيرازى فقد تأوه للمحنة ، ونظم فيها باللسان الفارسى شعرًا يذيب الجماد ، كما نظم فيها بالعربية شعرًا يرتفع كثيرًا عما قاله معاصروه من شعراء العرب .. ومن الطريف أن الجزء الرابع من كتاب المطالعة العربية –

وقد كُتب عليه أن الأستاذ أحمد أمين من مراجعيه قد نشر جزءًا من مرثية الشيرازى لبغداد، وهى وإن كانت أَقلَّ من شعره الفارسى جودةً وإتقانًا ، إلا أنها ممتازة بين زميلاتها من العربيات المعاصرات .

أما رثاء دمشق حين سقطت فى أيدى التتار فَمِمَّا نتمثل به هنا قول الشاعر علاء الدين العزولى :

أجريتُ جَمْرَ الدمعِ مِنْ أجفانى ... حزنًا على الشقراء والميدان
لهفى على وادى دمشق ولطفه ... وتبدُّلِ الغزلان بالثيران!
واحسرتاه على دمشق وقولها ... سبحانَ مَنْ بالغلِّ قد أبلانى!
لهفى عليك محاسنًا لهفى عليكِ ... عرائسًا لهفى عليك مغانى!
ما كان أهْنَا العيش فى ساحتها ... والدار دارى والزمان زمانى !

ولا أظن القارىء فى حاجة إلى الإكثار من هذا الوصف التقليدى ، وإنما سُطر بعضه على سبيل المثال .

على أن المشاهد أن رثاء المدن فى أدب المشارقة لم يقتصر على الشعر فقط ، بل تعداه إلى النثر ، فلم تُرْثَ مدينة «سامراء» بأبلغ ما قاله ابن المعتز فى محنتها نثرًا ، وحين هجم الصليبيون على مدينة «سروج» - بلدة أبى زيد صاحب الحريرى - أبدع فى رثائها بمقامة من عيون مقاماته ، وقد ألهته الفاجعة الأليمة فاسترسل نسبيًّا وترك غرائب السجع والازدواج ، وعجائب التلاعب بالألفاظ ، وانصرف إلى البكاء على المدينة من قلبه .. ولو أردنا أن نتحدث هنا عن المدن فى شعر الحروب الصليبية لطال القول ، ولكنّ مما يصرفنا عن ذلك ، أن المدن فى شعر الحروب الصليبية لا تكاد تستقل بالموضوع ، بل تأتى تبعًا فى أمداح عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى ، وسائر أبطال الحروب الصليبية ، وفيها دلالة واضحة على تحسّر الشعراء على سقوط بلادهم فى يد الصليبيين ، وحثهم على استردادها ، وقد صدق الله وعده ، فخرج الغزاة مدحورين .

★★★

ننتقل إلى مراثى المدن بالأندلس بعد أن عرفنا أن القول باختصاص الأندلس بهذا الغرض الشعرىّ لا ينهض على أساس قويم ، وإنَّ من الإنصاف أن نذكر أن الأندلس قد برعت فى هذا اللون براعةً مشهودة ، فقد وجدت فى مآسيها الدامية ما أذكى عواطف الحسرة واللّهف ، فاندلعت زفراتها الشعرية تتحدث عن المساجد المتهدمة والكنائس المشيدة ، والأَذان الصامت والناقوس المجلجل ! والحق أن الشعور الدينى المؤجج بالحسرة والندم قد جعل لقصائد الأندلس حرارة متّقدة لا تزال تلفح قارئها على مرّ العصور ، وقد كان سقوط «طليطلة" فى أواخر القرن الخامس الهجرى بدء المأساة ، فهى أول بلد إسلامى يُسَلَّم إلى الفرنجة دون أن يتنبه ملوك الطوائف لما يوشك أن يعصف بهم مِنْ بركان ، إذ نسَى المعتمد أنه على حافة البركان ، فعَاهد ملك الفرنجة على ألاَّ يقف بجنده أمامه عند التهام الغنيمة ، ولو جمع ملوك الطوائف أمرهم إزاء هذه النكبة ما استشرى لهيب الفرنجة على نحو ينذر بالفناء ، إذ إن «طليطلة» لم تجد من جيرانها المسلمين من يشدّ أَزْرَهَا غير الملك الشهم صاحب بطليوس ابن الأفطس ، إذ دافعَ عنها ما استطاع ، ولكن قوة الفرنجة كانت بحيث لا يثبت أمامها غير التعاون المحتشد المترامى ، وقد احتفظ لنا الْمِقَّرِىُّ بقصيدة باكية تبكى طليطلة ، وتسجّل المحنة القاصمة تسجيلاً يستدر الدموع ، وهى لشاعر مجهول طالت به الحسرة فنظم أكثر من سبعين بيتًا فى رثاء الدولة الذاهبة مستنجدًا مستغيثًا ، ومن أبياتها :

لثكلك كيف تبتسم الثغور ... سروراً بعدما يئست ثغور ؟!
طليطلة أباح الكفر منها ... حماها إنَّ ذا نَبَأٌ كبير
أنأمنُ أن يحلَّ بنا انتقام ... وفينا الفسق أجمع والفجور ؟
كفى حزنًا بأنَّ النَّاسَ قالوا ... إلى أين التحول والمسير؟
أنترك دورنا ونفرّ عنها ... وليس لنا وراء البحر دُورُ ؟!
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغرّ القوم بالله الغَرُور
رضوا بالرّق يا لله ماذا ... رآه وما أشار به مشير !

هذه هى العواطف الصادقة التى تجعل لمراثى المدن لوعة لا تخمد ! إذْ إنَّ الواقع المرير فى نفس الشاعر يُنطقه بالحقيقة المفجعة بعيدة عن تهاويل البيان وزخارف القول فتأتى حيّة نابضة ، وأى بيت بلاغىّ يحفل بالصور الفنيّة المصطلح عليها لدى المتفاصحين يبلغ من التأثير مبلغ هذا القول الطبيعىّ :

أنتركُ دُورنَا ونفرّ عنها ... وليس لنا وراء البحر دور ؟!

ولو رجع شعراء المدن الغاربة إلى عواطفهم الملتاعة لأبدعوا وأجادوا ، ولكننا نجد كثيرًا منهم يلجأون إلى أذهانهم الواعية ، وذاكرتهم الحافظة ، فينظمون أكثر ممّا يشعرون ، فلديك مثلاً قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأَفْطَس :

الدهرُ يَفْجَعُ بعدَ العَيْنِ بالأثرِ ... فما البكاءُ على الأشباح والصُّورِ
أنهاك أنهاك لا آلوكَ موعظةً ... عن نومةٍ بين ناب الليث والظفر
فلا تغرّنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر

هذه القصيدة قد جعلَها ناظمها معرضًا لذكر أحداث المصائب فى التاريخ العربى – جاهليه وإسلامه – فذكر كيف نكّل الدهر بالجبابرة من الملوك ، وتحدّث عن جُرْهُم ، وطَسَم ، وعَادٌ ، وعن دارا وأبرويز ، ويزدجرد ، ورستم ، وبنى ساسان ، وعن السَّبَئِيِّين فى اليمن ، ثم عن كليب ، وعَبْس ، وذبيان ، وعن عثمان ، والحسين ، ومصعب ، فى صدر الإسلام ، وخاض فى وقائع عباسية مشتهرة ، فأَلْمَحَ[1] إلى السفَّاح ، والمنصور ، والبرامكة ، والأمير ، حتى انتهى لبنى المظفر ، وكل ذلك يدل على قراءة الشاعر وثقافته ، ولكنه هنا شاعر لا مؤرخ ، وأَوْلَى به أن يصدر عن نفسه ! وهى سبيلٌ مطروقة سَنَّهَا أبو تمام فى قصائده ، فجعل الشعراء يقتفونه ، إذ ينظمون شذرات مبتسرة من حوادث التاريخ هنا وهناك ، وقد يقول قائل إن قصيدة ابن عبدون فى بنى الأفطس قد احتفل بها الأدباء ، وبالغَ أكثرهم فى تقديرها ، حتى أفردها ابن بدوون

(١) ألمح : أشار .

المتوفى سنة ٦١٠ بشرح مسهب ، وهذا كله لا يزيد من قيمتها الفنيّة ، لأن مشيخة الأدب لعهده كانوا يحتفلون بالآثار التاريخية نظمًا ونثرًا لا لقيمتها الفنية ، ولكن لأنها تفسح مجال الشرح والتفسير فينطلق المؤلف الشارح وراء الأبيات ليذكر ما تشير إليه من الحوادث التاريخية بإسهاب ، ولديك رسالتا ابن زيدون الجدية والهذلية ، فقد أفردت لهما الشروح الكثيرة ، نظرًا لما تضمنتاه من الإلماع إلى حوادث التاريخ ، ولو خلتا من ذلك ما احتفل بهما الشارحون من العلماء ، وهذا كله إنْ عُدَّ لابن عبدون وابن زيدون وأضرابهما – كالأعمى التطيلى ولسان الدين – فى مجال الثقافة والإطلاع ، فإن مجال الفن وحده مما يضيق أحيانًا عن إطراء هذا اللون وموازنته بالشعر الفنى ذى الهواتف الذاتية ، والشعور الفريد ، على أن مجال القول فى بنى الأفطس كان متسعًا لا يجيز لابن عبدون أن يفر منه إلى حوادث التاريخ ، فبنو الأفطس أبطال مخلصون ، وقد غدر بهم يوسف بن تاشفين لِيَلْتَهم الأندلس التهامًا ! ولو كان صادق الرغبة لله وللإسلام فى مجيئة للأندلس لَتَعَقَّبَ فلول النصارى بعد موقعة الزلاقة – كما أشار عليه ابن عباد – فيستأصل شأفتهم فى نشوة النصر وزهو الفرحة لدى المسلمين ، وفى زعازع الوجل وعواصف الفزع لدى القشتاليين، ولكنّه أحجم عن هذا الغرض المحتوم ليمدّ لنفسه أسباب البقاء بالأندلس ، ويرى من المبررات المختلفة ما يساعده على استئصال ملوك الطوائف بغيًا وعدوانًا ، وقد بلغ مراده فيهم ، فلم يكتف بحرمانهم وطردهم ، بل قتل الملوك دون جريرة – كبنى الأفطس وسواهم – ومن عفا عنهم – كالمعتمد – قيّده بالأغلال فى السجن ، وعرّض أولاده وزوجاته لغزل النسيج وجمع الفتات ، ليجد الأسرى ما يمسك الرمق من الزاد ! وها هو ذا قد استولى على الأندلس المسلمة ، فلم تَتوجه همته إلى مناوءة المتربصين بها من الأعداء، حتى جاءه الموت وخلفه ابنه علىّ ثم عصفت الأيام بدولته سريعًا على يد الموحدين ! وقويت شوكة النصارى فأخذوا يُسقطون المدنَ الإسلامية مدينةً وراء أخرى ، وفزع المسلمون بأسبانيا ، فأرسلوا رسلهم إلى العدوة مستغيثين ! وقد حفظ التاريخ الأدبى بعض ما قيل فى ذلك من أمثال قول ابن الأَبَّار القضاعى البلنسى مستنصرًا بسلطان تونس :

أَدْرِكْ بخيلـــكَ خَيْـــلَ الله أندلـــسًا ... إن الـــسبيلَ إلى مَنْجَاتِهَـــا درسَـــا
يـــاللجزيرة أضـــحى أهلُهـــا جُـــزُرًا ... للحادثـــات وأمـــسى جـــدها تَعِـــسَا!
فـــى كـــل شـــارقةٍ إلمـــامُ بائقـــة ... يعـــود مأتمهـــا عنـــد العـــدا عُرسَـــا
مـــدائنٌ حلـــها الإشـــراك مبتـــسمًا ... جـــذلان وارتحـــل الإيمـــان مبتئـــسَا
محَـــا مَحاســـنها طـــاغٍ أُتـــيح لهـــا ... مـــا نـــام عـــن هَـــضْمِهَا حينًـــا ولا نَعِـــسَا
ورجَّ أرجاءَهـــا لمـــا أحـــاط بهـــا ... فغـــادرَ الـــشّم مـــن أعلامهـــا خنـــسَا
وأكثر الزعـــم بالتثليـــث منفـــــردًا ... ولـــو رأى رأية التوحيـــد مـــا نَبِســـــَا

وقول غيره بعد سقوط بلنسية :

نادتْـــك أنـــدلسٌ فَلَـــبِّ نـــداءَها ... واجعـــلْ طواغيـــتَ الـــصليبِ فـــداءَها
ياحـــــسرتى لعقائـــــلٍ معقولـــــة ... سَـئِمَ الهـدى نحـو الـضلال هـداءها !
كيـــف الـــسبيل إلى احـــتلالِ معاهـــدٍ ... شـــبّ الأعـــاجم دونهـــا هيجاءهـــا ؟
طـــاب المعـــرّس والمقيـــل خلالهـــا ... وتطلعـــت غـــرر المنـــى أثناءهـــا
بـــأبى مـــدارس كـــالطولِ دَوَارِس ... نـــسختْ نـــواقيسُ الـــصليبِ نـــداءَها
ومـــصانع كَـــسَفَ الـــضلالُ صَـــباحَها ... فيخَالُـــهُ الرَّائـــى إليـــه مَـــساءَها
ناحـــت بهـــا الورْقَـــاءُ تـــسمع شَـــدْوَهَا ... وغـــدتْ تُـــرَجِّحُ نوحهـــا وبكاءهـــا
عجبـــًا لأهـــل النـــار حَلُّـــو جَنَّـــةً ... منهـــا تمـــد عَلَيْهِـــمُ أفياءهـــــا

أما المرثية التى شَرّقَتْ وغَرَّبَتْ ، وسار بها السائرون فى كل وادٍ ، فهى قصيدة أبى البقاء صالح بن شريف الرندى ، وهى واضحة اللفظ ، قريبة المعانى ، ولكن إهاجتها العواطف وإثارتها المشاعر جاءتْ من ضربها المرِنِّ على الوتر الدينى ، فالمحاريب تبكى وهى جامدة ، والمنابر ترثى وهى عيدان ، والمساجد كنائس ذات صلبان ، والمسْتَضْعَفُونَ من المسلمين قَتْلَى وأسرى يستغيثون ، فَمَا يهتز إنسان :

تلك المصـــيبةُ أَنْسَـــتْ كُلَّ فـــادحةٍ ... ومـــا لهـــا فى طَويلِ الدهـــرِ نســـيانُ

وهذا النمط من القول يذكى المشاعر ، ويلهج الألسنة بالصراخ ، والعيون بالدمع ، ولذلك بقيت القصيدة حيّة يُتمثل بها فى المواقف المؤسية ، وهى على بساطة معانيها أفعل بالنفس من كل توليد خارق ، بل إن المعانى المتكررة كبكاء الأم لمصرع الطفل ، وانقياد الأوانس المحصنات إلى سِفْلَة العُلوج ، لترى بها قشيبةً ذات طرافة وجِدَّة ! وهذه بعض زفراتها :

أعندكم نَبَأٌ عن أهل أندلس ؟ ... فقد مَضَى بحديثِ القومِ رُكْبَانُ
تبكى الحنيفيةُ البيضاءُ من أَسَفٍ ... كما بكَى لفراق الإلْفِ هَيْمَانُ
حيثُ المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان
كم يستغيثُ بها المستضعفونَ وَهُمْ ... قَتْلَى وأَسْرَى فما يهتزُّ إنسان!
أَلا نفوس أَبِيَّاتٌ لها هِمَمٌ ... أَمَا على الخير أنصارٌ وأعوانُ ؟
يا مَنْ لذلة قوم بعد عِزِّهِمُ ... أحالَ حَالهمُ كفرٌ وطغيانُ
فلو تراهم حيارَى لا دليلَ لهم ... عليهمُ من ثيابِ الذُّلِّ ألوانُ
ولو رأَيْتَ بُكاهم عند بَيْعِهِمُ ... لَهالَكَ الأَمْرُ واستهوتْكَ أَحزانُ
يا رب أُمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بينهما ... كما تفرّق أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةٍ مثل حُسْنِ الشمس إذْ طَلَعَتْ ... كأنما هى ياقوتٌ ومرجانُ
يقودُها العِلْجُ للمكروه مُكْرَهَةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ
لمثل هذا يَذُوبُ القلبُ من كَمَدٍ ... إنْ كان فى القلب إسلامُ وإيمانُ

أَسَمِعْتَ خطبةً رائعة يقولها خطيبٌ بليغ اللفظ قوى الإشارة عن حادثة خطيرة فى محفل يترقب النتائج ويستشرف الأنباء ؟! فهو يجمل إجمالاً يغنى عن التفصيل ليترك للمشاعر والعقول نصيبها من التخيّل والتخمين ! ثم هو يضرب على الأوتار الحساسة ليشد الأعصاب إلى قوله ، والنفوس إلى أفكاره ، هكذا كان «أبو البقاء» خطيبًا شاعرًا ، وإذا كانت موازين النقد المعاصر لا تعترف بالأسلوب الخطابى فى مجالات الشعر فهى مضطرة إلى التنازل عن رأيها فيما يتعلّق بفنون الاستثارة حماسةً وبكاءً ، لها أن تطبق

قواعدها الفنيّة على الغزل الهامس ، والعتاب الشاكى ، والوصف المصوّر ، أمّا مجال الحفيظة والغضب ، والثأر المتربّص ، والحمية المذكّاة ، فإن الخطابة الشعريّة هنا من بواعث التوفيق وأسباب التبريز ، وإذا عارض بعض الناس هذه الوجهة فليسأل نفسه : لماذا خلدت قصيدة أبى البقاء وما ينحو نحوها فرددتها الأجيال ؟..

وهناك فى مراثى الأندلس ظاهرة مهمة ، هى أن أكثر قائليها غير معروفين لنا الآن ، إذ كانوا نفرًا ممن هزّتهم المحنة ، فأرسلوا عبراتهم المنظومة ، ورواها الأدباء عنهم لروعتها ، دون أن يقفوا غالبًا عند قائليها ، ولا شك أنهم كانوا مشهورين فى أزمانهم حتى سارتْ شواردهم مسير الشمس فى كل أُفق ، ولكنك تتقصَّى أسماءهم الآن فتجهل أكثر ممن تعرف ، وقد مرَّت بنا أبيات من قصيدة :

لثكـــلك كيـف تبتســم الثغـــورُ ســـرورًا بعدمـــا يَئِسَـــتْ ثغـورُ ؟

ومن قصيدة :

نـــادتك أندلـــس فَلَـــبِّ نداءَهـــــا واجعـــلْ طواغيـــتَ الصليبِ فداءَهـا

وكلتاهما لا يُعلم لها قائل ، أما أروع مرثية عرفناها للأندلس على الإطلاق فقد ظلّت مختفية فى المخطوطات حتى كشف عنها الباحثون منذ نصف قرن فقط ، دون أن يهتدوا – للآن – إلى قائلها القدير ! وهى ملحمة طويلة تسجّل النكبة الأندلسية تسجيلاً حارًّا يلهب الجوانح ، ويثير اللواعج ، وأَذْكُرُ أن المؤرخ الجاد الأستاذ محمد عبد الله عنان قد درسها دراسة تاريخية فى مجلة الرسالة[1] ، فاهتدى بمقارنة ما فيها من الحوادث ومصارع المدن إلى أنها نُظمت بعد سقوط «غرناطة» ، وهى بعدُ آخر معقل إسلامى غربت بعده شمس الإسلام بالأندلس ، بل تأخرت عن هذه الكارثة حتى شاهد ناظمها محاولات الأسبان فى تنصير المسلمين وصَدّهم عن دينهم القويم بعد أن أعطوا العهود الخائنة باحترام العقائد وتأمين الأشخاص على الأعراض والأموال والحريات ، وأشار إلى نحو من ذلك فى قوله :

(١) مجلة الرسالة – العدد ١٣ ، (٢٠ يناير سنة ١٩٣٦) .

وجـاءتْ إلى استئـصالِ شَـأْفَةِ ديننـا ... جيـوشٌ كمـوج البحـر هَبَّـتْ دَبُورُهَـا[1]
علامـاتُ أَخْـذٍ مالنـا قِبَـلٌ بهـا ... جنايـاتُ سَـلْبٍ قـد جناهـا مُثيرُهَـا
فـلا تَمَّحِي إلا بمحـوِ أُصـولها ... ولا تَنْجَـلِي حتى تحـط أصُـورُها

وقد استنبط الأستاذ عنان من ذلك أنها قيلت حوالى سنة ٩٠٥هـ (سنة ١٥٠٠م) ، مع أن سقوط غرناطة كان سنة ٨٩٧هـ (سنة ١٤٩١م) .

والقصيدةُ الرنّانة عواطف ثائرة ناقمة ، قد أغنتْها وقائعها المذهلة عن التلفيق والتنميق ، وقد جمعتُ كُلَّ ما قيل عن المأساة قبل ذلك ، من هَتْكِ الحُرمات ، وهدم المنابر والمحاريب ، واستسلام الأطفال واليتامى والشيوخ ، واستئصال الشباب وذوى الفناء ، ولا يستطيع مسلم – على مرور الزمن الطويل – أن يقرأها مرّة واحدة ، حتى يقف أثناءها لحظات يردّد بها زفرة ، أو يساقط عبرة ، أو يُهدىء لواعج حزن يلذع ! فإن بها ما يشيب الولدان من فاجر التعذيب ، وهائل الترويع ! وقد أرهقتْ أعصابى إرهاقًا مؤسيًا وأنا أحاول إعادتها لكتابةِ كلمة موجزة عنها ، فكنت كَمَنْ يسيرُ على الجمر الملتهب ، تشتعل النار فى أعضائه ، فيتصبّر ويتماسك ، ثم يلمس من هول اللذع ما يسلمه إلى النحيب ! وسأنقل منها بعض الأبيات – كما اتفق – وهى أكثر من مائة وخمسين بيتًا ، فيا لله ، كم تَعَذَّبَ ناظِمُهَا ثم خَلَّفَها من ورائه ليعذب بها القارئين !

أحقًّا خَبَا من جَوِّ«رَنْدَةَ» نورها ... وقد كُسِفَتْ بعد الشموس بُدُورُهَا
وقد أظلمتْ أرجاؤها وتزلزلتْ ... مَنازِهُهَا ذات العُلا وقُصورُهَا
تسلمها حزبُ الصليب وقادَهَا ... وكانت شَرُودًا لا يُقَادُ نفورُها
فَبادَ بها الإسلام حتى تقطعتْ ... مناسيها واستأصل الحقَّ زُورُهَا
لِقَرْعِ النواقيسِ اعتلَى بمنارها ... كَرَائِهُ أصواتٍ يروع صريرُهَا
فواحَسرتاه كمْ مساجد حُوِّلَتْ ... وكانت إلى البيتِ الحرام شطورُها
ووااسفَا كم مِنْ مآذِنَ أُوحِشَتْ ... وقد كان معتادُ الأذانِ يزورها

(١) الدَّبُور : ريح تهبُّ من المغرب .

وكم من لسانٍ كان فيها مرتل ... وحفلٍ بختم الذِّكْر تمضى شهورها
وكم طفلةٍ حسناء فيها مصونة ... إذا سفرتْ يسبى العقول سفورها
تميلُ كغصن البان مالت به الصبّا ... وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحتْ بأيدى الكافرين رهينةً ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لُطِمَتْ واحَرَّ قلبى خُدودُها ... وقد بُعثرت وَادَمْعَ عينى شعورُها
وإنْ تستغثْ بالله والدين لا تُغَثْ ... وإنْ تَسْتَجِرْ ذا رحمة لا يُجِيرُها
وقد حِيلَ ما بين الشقيق وبينها ... وأسلمها آباؤها وعشيرها
وكَمْ من عجوزٍ يحرم الماء ظمؤها ... على الذل يطول لبثها ومسيرها
وشيخٍ على الإسلام شابت شيوبه ... يُمزّق من بعد الوقارِ قتيرها
وكم فيهمُ من مهجة ذات ضجة ... تودُّ لو انضمتْ عليها قبورُها
لها روعةٌ من وقعة البين دائمٌ ... أساَها وعينٌ لا يكف هديرها
وكم من صغيرٍ حِيزَ من حجرِ أُمِّهِ ... فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغيرٍ بدَّل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها
كرُوبٌ وأحزان يلين لها الصَّفَا ... عواقبها محذورة وشرورها
فيا قرحة القلب الذى عاش بعدها ... ويا لَعمى عين رآها بصيرها
ويا غربة الإسلام بين خلالها ... ويا عثرةً أَنَّى يُقَالُ عُثورُهَا
ويا ليتَ أُمِّى لم تلدنى وليتنى ... بُليت فلم تفلح فؤادى حرورها
ويا لعزاءِ المسلمين لفاقة ... على الرغم أغنى مَن لديها فقيرها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورةٌ وثغورها
تهائمها مفجوعة وبخودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزّقت ... ملابسَ حُسْنٍ كان يزهو حبورها
فلو أن ذا إِلْفٍ من البين هَالِكٌ ... لذابتْ رواسيها وغاضتْ بُحورها
تُرى للأسى أعلامها وهى خُشَّعٌ ... ومنبرُها مستعبر وسريرها
ومأمومُها ساهى الحجا وإمامها ... وزائرها فى مَأْتَمٍ ومزورها

أضـــعْنا حقـــوقَ الله حتـــى أضـــاعنا ... وحَلَّـــتْ عُـــرَى الإســـلامِ إلا يَـــسِيرُها
وملَّتُنَـــا لم تعـــرف الـــدهر عرفهـــا ... مـــن النكـــر فـــانظر كيـــف كـــان نكيرهـــا
لقـــد ســـلبُوا أوطاننـــا ونفوســـنا ... وأموالنـــا فيئًـــا أُبيحـــت وفورهـــا
عَلَوْهـــا بـــلا مهـــرٍ ومـــا غمـــزت لهـــم ... قنـــاة ولا غـــارت علـــيهم ذكورهـــا
وقـــد عَـــدَتِ الإفـــرنجُ مـــن كـــل شـــاهقٍ ... علينـــا فوقـــت للـــصليب تـــدورها
وقـــد كَـــشَّرَتْ ذُؤْبَانُهَـــا وكلابُهـــا ... وقـــد كـــسرت عقبانهـــا ونـــسورها
ودبّـــت أفاعيهـــا إلى كـــل مـــؤمنٍ ... وعـــضّ بأكبـــاد النقـــاف عقورهـــا
أنـــادى لهـــا عجـــم الرجـــال وعربهـــا ... نـــداء ســـراة القفـــر إذ ضـــلّ عيرهـــا
إلـــه الـــورَى نـــدعوك يـــا خـــير مُرْتَجَـــى ... لكالحـــةٍ هـــز الـــصليب سُـــرورها
أغـــثْ دعـــوات المستغيثـــين إنهـــم ... ببابكَ موقوفـــو الحشـــاشات بورهـــا

هذا قلٌّ من كُثر ، ونظائره فى هذه الملحمة وفى غيرها من أدب الفجيعة أكثر من أن يشار إليه .

لعلنا بعد هذا الاستعراض نعلم أن مراثى المدن مبثوثة فى كل أدب ، وفى كل إقليم، وفى كلّ لغة ، مادامت هناك نكبات تهز الشعراء ، فالقول بأن الأندلس قد ابتكرت هذا اللون يحتاج إلى تصويب ، كالقول تمامًا بأن مراثى الأندلس فى القديم قد تركت تأثيرها المجلجل فى مراثى فلسطين التى نطالعها الآن ، راجين أن يسعفها نصر من الله وفتح قريب .

★★★